كلمة أصدقاء الفقيد

ألقاها الأستاذ الدكتور محمود الربداوي

السيد رئيس المجمع

السادة الحضور

بِسْمِ ٱللهِ الرَحمنِ الرَّحيمِ، المحييْ المُميتْ،

القائلِ في محكم آياته، والمخاطبِ لرسوله الكريم: ﴿ومَا جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبلِكَ الخُلدَ أفإِن مِتَّ فهُمُ ٱلخالدوْن ۞ كلُّ نفْسٍ ذآئِقةُ ٱلموْتِ ونبْلُوَكمْ بالشَّرِ وٱلخيرِ فِتْنةً وإليْنا تُرجَعوْن﴾ صدق الله العظيم. [الأنبياء: ٣٤ و٣٥].

وصلّى الله على سيدنا محمد القائلِ في الصحيح من أحاديثه: «إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جارية، أوعلمٍ يُنتفَع به، أو ولدٍ صالح يدعو له».

وفقيدنا الذي نحتفي بذكرى تأبينه اليوم ترك علمًا غزيرًا يُنتفع به.

فهذه المؤلفاتُ الكثيرةُ التي تركها ما زالت ينتفع بها الجم الغفير من المثقفين، والأجيال المتتابعة من الطلاب الجامعيين على مقاعد الدراسة، كما انتفع آلاف الطلاب الذين تخرجوا على يديه، وهاهم أولاء الآن يتوزعون على مساحة القطر العربي السوري وخارجَه، وينقلون ما تلَقّوْه من فكره وأدبه.

أيها الإخوة الحضور: أكرر قوله تعالى ﴿نحنُ قدَّرنا بَينكم الموْتَ وما نحنُ بِمَسْبُوقين ﴾

ولهذا أقول عن هذه الثلة المجمعية التي رحلت عن عالمنا كالدكتور إحسان النص والدكتور عزيز شكري والدكتورة ليلى الصباغ «هكذا يرحلون مثلما يرحل الغيم مثقلًا

بحبات المطر. ومثلما ترحل الأمنيات تاركة خلفها مساحاتٍ شاسعةً من الذهول. وهكذا يموتون مثلما تموت البذور في موسم خصيب»، أو كما قال الشاعر:

يتساقطون على الدروب كأنهم ... ورقُ الخريف يهزه الإعصارُ

هذه هي حكمة الله في مخلوقاته. أسكنهم في الدنيا حينا من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم نقلهم إلى دار الخلود: وهذا ما لحظه الشاعر عندما قال:

سكن الدنيا أناس قبلنا ... رحلوا عنها وخَلَّوْها لنا

ولقد نمضي على آثارهم ... ونخليها لقوم بعدنا

سكن إحسان النص الدنيا واحدًا وتسعين عامًا، كان فيها مُنعمًا ميسورَ الحال. ظل فيها في كل مراحل عمره نظيف الجيب، عفيف الفرج، يترفع عن سفاسف الأمور، وصغائر الأشياء، يحترم نفسه ففرض احترامه على الناس، دفعه علمه إلى أن يُحب الأناة وأن يصدر عن فكرٍ عميق، يقلِّب الآراء قبل أن ينطق بها. لا يتعجل في إصدار الأحكام قبل أن تُنضَج في عقله، وهذا أكسبه المهابة والاحترام.

شق طريقه في حقل العلم والأدب، وهو طريق يُيَسِّر العيش الكريم، وإن شكا منه بعض الذين أدركتهم حرفة الأدب، ولكنه ظل مخلصًا لكتابه وتخصصه فجاءت كتاباته عميقة الأفكار، بعيدة عن السطحية، يتمتع بثقافة واسعة، ليس في العربية وحدها،وإنما في التاريخ والأنساب ومقومات الخطابة. مارس أعمالًا إداريةً: عميدًا في كلية الآداب، ونائبًا لرئيس المجمع، وعضوًا في مجامع أخرى. أما حماسه للعربية فهو مُنقطع النظير، وفي التعليم في شتى مراحله، فكان من جيل المعلمين الذين يتمتعون بالوقار والمهابة في قاعة الدرس، فلا تقتحمه العين، أنفق عمره الذي تجاوز التسعين متعلمًا ومُعلمًا وعالمًا، ولو قُيِّضَ له أن يمتد عمره إلى المئة لظل يأخذ بحكمة الرسولﷺ اطلب العلم من المهد إلى اللحد، ولظل يأمل بالعيش بين الكتب والمخطوطات، هذا الأمل الذي لخصه الشاعر عندما قال:

المـــــرء يأمـــــل أن يعـــــيش   وطـــول عـــيش قـــد يضـــره
تفنــــى بشاشـــــته ويـــــأتي   بعـــد حُلْـــو العـــيش مُـــرُّه
وتخونـــــه الأيـــــام حتـــــى   لا يـــــرى شـــــيئًا يســـــره

أيها السادة الأفاضل

صحبت الدكتور إحسان رَدَحًا من الزمان، قسمته إلى أربع مراحل:

١- مرحلة الجزائر ٢- مرحلة لبنان ٣- مرحلة الجامعة ٤- مرحلة المجمع

ولولا أنني أخشى أن أطيل عليكم، وليست هذه الظروف التي نحياها تسمح بالإطالة، لتكلمت على هذه المراحل الأربع. ولكن مرحلة الجامعة تكفَّل بالحديث عنها زميلي وصديقي الدكتور عبد النبي اصطيف، والمرحلة الرابعة مر أكثر الحديث عنها في تضاعيف كلمات الأساتذة المجمعيين.

وأكتفي بالحديث عن صحبتي للدكتور إحسان في جامعة الجزائر، وفي الجامعة اللبنانية في بيروت.

ولنبدأ بعلاقتي بالدكتور إحسان بالجزائر بدءًا من عام ١٩٧١، واخترت هذه العلاقة بالدكتور إحسان من مجموعة علاقات دامت سنتين، لصلة هذه العلاقة باللغة العربية والتعريب.

غير أنني أستميحكم العذر بأن أقدم - وبأسطرٍ قليلة- عن العلاقة الطيبة والوثيقة بين الدكتور إحسان والدكتور شاكر الفحام الأب الروحي لحركة التعريب في الجزائر. ولستُ مبالغًا إذا قلتُ إن التعليم في شتى مستوياته، الجامعي والثانوي والابتدائي، مدينٌ لجهود الدكتور شاكر.

فالدكتور شاكر شغل منصب سفير سورية في الجزائر بين العامين ١٩٦٤و١٩٦٨ أي بعد سنتين من استقلال الجزائر، وكانت أولويّات الشعب الجزائري التخلّصَ من اللغة الفرنسية التي فُرضت عليه قرنًا وثُلثَ القرن، وإحلال اللغة العربية محلَّها، فما إن

جاء إلى الحكم الرئيس (هواري بومدين) – وكان من المتحمسين للتعريب، لأنه خريج الأزهر – حتى أخذ في تعريب الجزائر، تعليمًا وإدارة، وعاونه في ذلك مجموعة من المؤمنين بالتعريب كاختيارٍ وطني وقومي وديني، وعلى رأس هؤلاء الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ابن الشيخ البشير الإبراهيمي كبير رجال الفكر والنضال في الحِقبة الاستعمارية. وكان الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي قد تسلم وزارة التربية والتعليم، وهذا بدوره وجد في شخص الدكتور شاكر أبرز وأصدق متحمس لقضية التعريب، الدكتور شاكر الفحام الذي وصفه مرةً الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع بقوله «إن الفحام سفير للتعريب، فهو لم يكتف بعمله الدبلوماسي»، ولذلك استقدم الدكتور شاكر للجزائر رفاقه في جامعة دمشق ووزارة التربية السورية لترسيخ ظاهرة التعريب، فقدِم أول من قدِم رفيقُ درب الدكتور شاكر الدكتور إحسان النص ثم الدكتور شكري فيصل، والدكتور أسعد الدرقاوي، والدكتور بديع الكسم، والدكتور هشام الصفدي، والدكتورة ليلى الصباغ، ومحمود الربداوي، وعبد الكريم الأشتر، ووحيد سوار، وبعض الأساتذة من كلية العلوم كالدكتور أحمد الحاج سعيد، وحسن كنيش، وأدهم السمان.

وقام الدكتور شاكر بتعريف الدكتور إحسان إلى ثُلَّة من عِلْيةِ القوم: منهم الدكتور الإبراهيمي وزير التربية والثقافة وغيرُه، وعندما غادر الدكتور شاكر الجزائر عائدًا إلى وطنه وتسلم فيه مناصب حساسة كوزارة التربية، والتعليم العالي، ورئاسة الجامعة، ورئاسة الموسوعة العربية، ظلت عينهُ مشدودة إلى تعريب الجزائر، فبعث الجيل الثاني للتعريب. وكان من بينهم العبد الفقير والدكتور جودة الركابي، ورضوان الداية وغيرهم. وكان ذلك في مطالع السبعينيات، والتقيت وقتذاك بالدكتور إحسان وترسخت العلاقة الطيبة بيني وبينه، وتزاملنا في كلية آداب جامعة الجزائر العاصمة، وتشاركنا في الإشراف على طلاب الدراسات العليا، وأسهمنا في تكوين طلاب أصبحوا يتسلّمون ـ فيما بعد ـ مراكز مرموقة في السلك الوظيفي كالوزارات والمؤسسات التنموية.

وفي عام ١٩٧٢ انتهت إعارة الدكتور إحسان للجزائر، وغادرها إلى دمشق، ولكنه كان قد عرَّفني بمجموعة من المسؤولين الذين يشغلون مناصب حساسة في الدولة والأوساط الثقافية، كالدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، وزير التربية والتعليم، والأستاذ عبد الحميد المهدي رئيس حزب جبهة التحرير الجزائرية. ومحمد الصديق بن يحيى، وزير الخارجية الجزائري ونفرٍ غيرِ قليلٍ من صفوة المثقفين. وفي هذه الأثناء أوصلتني الأقدار والأشخاص الذين عرفتهم عن طريق الدكتور إحسان، إلى قضيتين هامتين جدًا في مسألة التعريب: الأولى أن الرئيس بومدين زار جامعة الجزائر العاصمة، وتجول في مكتبة قسم اللغة العربية، فوجدها فقيرةً في الكتاب العربي، وكان أعظمُ ما فيها من الكتب الفرنسية، فهاله ذلك، وأمر المسؤولين من مرافقيه أن يخصصوا مليونَ دينارٍ جزائري لشراء كتبٍ عربية، لتزويد المكتبة بها. وشكَّلَ لجنةً مُهِمَّتُها الذهاب إلى مصر ولبنان وسورية، وكنت أحدَ أعضائها لشراء الكتب العربية التي زوّدنا بها المكتبة.

والثانية: كانت يوم تزوّج الرئيس بومدين من (أنيسة المفصلي) في منتصف السبعينيات، ومع أن أنيسة كانت محامية خريجة كلية الحقوق في السوربون فإنها لا تعرف اللغة العربية، على حبّها الشديد لها، واشتد حبُّها يوم أصبحت (سيدة الجزائر الأولى)، وأصبحت ترافق الرئيس بومدين إلى البلاد العربية. وتشعر بغصة لكونها لا تعرف العربية، فطلب بومدين من وزير التعليم العالي أن يختار من قسم اللغة العربية، حيث كنتُ، أستاذةً وتحديدًا من سورية لتعليم أنيسة، وعندما تناهى الطلب إليَّ رشّحتُ لهم طالبة سورية من طالباتي اسمها (مي مقدَّم) ابنة الشاعرة (مها غريب) وقامت بالمهمة خير قيام، ولكن تتمة قصتها في القصر الجمهوري انحرفت عن خدمة العربية والتعريب، وأنتم في غنى عن سماع تلكم القصة.

أما صحبتي الثانية للدكتور إحسان فكانت في مرحلة التدريس في الجامعة اللبنانية في السنوات الثلاث الأخيرة من العقد الثامن من القرن الماضي، وحصرًا سنة ١٩٧٨، ١٩٧٩، ١٩٨٠.

في إبان الحرب الأهلية، أيام اجتاحت لبنان الحربُ الأهلية، فانقسمت الجامعة اللبنانية إلى قسمين: الأول في بيروت الشرقية، وذهب إليها عامة الأساتذة المسيحيين، وهم السَّواد الأعظم من الدكاترة المدرسين، ويشكلون الكتلة الكبرى من أعضاء هيئة التدريس. والقسم الثاني بقي في جامعة بيروت الغربية، وهذا القسم خلا من المدرسين، فعمد الأستاذ الدكتور صبحي الصالح رحمه الله، وكان عميدًا لكلية آداب جامعة بيروت الغربية آنذاك، إلى الاستنجاد بالأساتذة السوريين، فطلب من الدكتور إحسان النص عميد كلية الآداب بجامعة دمشق أن يسهم مع مجموعة من الأساتذة كنت أنا واحدًا منهم، وبصحبة الدكتور عبد الكريم الأشتر والدكتور أحمد طربين وغيرنا من الذين ذهبوا مناضلين، كما سمانا الدكتور إحسان (المناضلين تحت راية العلم والأدب)، حيث كنا نذهب نحن الأربعة يوم الجمعة، وهو يوم عطلة عندنا، وهو دوام عندهم، نذهب أسبوعيًّا طوال السنوات الثلاث تحت أزيز الرصاص ودويّ القذائف من ساعة دخولنا إلى بيروت حتى خروجنا منها، وكنا نردد ونحن في سيارة الأجرة بيتين للإمام الشافعي، يقول فيهما:

تغرَّبْ عن الأوطان في طلب العُلا وسافِرْ ففي الأسفار خمس فوائدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، واكتساب معيشةٍ وعلمٌ، وآدابٌ، وصحبةُ ماجدِ

وكان الدكتور إحسان يشجعنا بابتسامته الودودة وظَرفه الوقور، فيقول لنا أنتم تحققون في مجيئكم إلى بيروت العناصر الخمسة التي عناها الشافعي في البيت الثاني.

والحق أن هؤلاء الكرام من الأساتذة كلهم أماجد، وعلى رأسهم الدكتور إحسان ففيه من طيب العِشْرة، وعذب السلوك، وعميق الخبرة، وخفة الظل، ما كان يهوّن علينا عناء السفر، ومغامراته الخطرة.

أيها السادة الأفاضل والسيدات الفُضْلَيَات

اعذروني إذا قصَّرتْ كلماتي عن البوح الذي يجب على الصديق تجاه صديقه، فمساحةُ الصداقة عمرها أكثرُ من نصف قرن، وحجمها أكبر من أن يستوعبه كتاب. فمساحةٌ بهذ الحجم لا أستطيع أن أختزلها بربع ساعة، وتعداد مزايا فقيدنا الراحل لا تسمح بالإحاطة بها مثلُ هذه المناسبة. ولكني اكتفيت بالحديث عن مرحلَتَيْ علاقتي بصديقي في الجزائر وفي لبنان، وخاصة في عشقه للُّغة العربية واهتمامه بالتعريب.

وما دمنا نتحدث عن مآثر الدكتور إحسان وجهوده في حركة التعريب في الجزائر، كان من الجدير بنا ألا نُغْفِلَ أبرز وأعظم عملية في التعريب. اشتركت فيها الدولتان: الجزائرية والسورية وهي حركة تعريب الدكاترة الجزائريين المُفَرنسين، إذ اشترك من الجانب السوري الدكتور النص والفحام والربداوي، فاستقدمنا ١٥٠ دكتورًا مكوَّنًا باللغة الفرنسية في اختصاصات مختلفة، واستضفناهم في جامعة دمشق مدة عام كامل، ووزعناهم على نُظرائهم من الاختصاصات العلمية، وأخضعناهم لدورات يومية لتعليمهم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وأسكناهم مع أسر دمشقية.ثم أعدناهم إلى جامعاتهم بعد امتحان تأهيلي بإتقان المحاضرة باللغة العربية. ولكنّ الحديث عن تفاصيل هذه العملية حديث طويل الآن لا يتسع له المقام، ولكنه موجود مفصلًا في كتابي الذي عنوانه: (ذهب الذين أحبهم).

سادتي.. كأني بروح فقيدنا الدكتور إحسان النص الذي كان يجلس في هذا المكان ترفرف في علياء جمعكم هذا، مترنّمة بالكلمة الطيبة:

سيذكرني بعد الرحيل أحبَّتي وتبقى من المرء الأحاديث والذكرُ
زهور الرُّبا بعد الربيع قليلةٌ ويدنيك منها في قواريره العطرُ

للفقيد الرحمة والغفران، ولأسرته الصبر والعزاء، والسلام عليكم.